همسة عتاب أخوي في أذن الصديق الرئيس بوتفليقة

عبد الهادي بو طالب

طيلة ٢٨ سنة عَرفت العلاقاتُ المغربية ـ الجزائرية توترًا أثّر في مسيرة اتحاد المغرب العربي وأصابه بالتعويق والشلل وكان وراء هذا التوتر موقفُ الجزائر الغريبُ من قضية استرجاع المغرب صحراءَه الغربيةَ من الاستعمار الإسباني سنة ١٩٧٥. وكان المفروض أن تهلِّل الجزائرُ، بلدُ المليون شهيد، لهذا المكسب الكبير وتباركه، وأن تعتبر أنّه مكسبُها الوطني الذي لا يقلّ عن مكسب تحرير أرضها من الاستعمار الفرنسي. لكنّ السياسة الجزائرية اتجهتْ في منحًى آخر، وتعاملتْ مع قضية تحرير المغرب صحراءَه بموازين توازن القوى، التي هي إحدى خصائص الدول العظمى ولعلّها طَرحت السؤالَ: مَن الذي يجب أن ترجَّح كفّتُه من بين أطراف المغرب العربي ليقودَ اتحادَ المغرب العربي ويتحكَّم في صيرورته ومصيره؟ وانتهت إلى وجوب انتهاج سياسةٍ تحقِّق لها الرجحانَ المنشودَ. وما تزال إلى الآن رهينةَ هذه السياسة.

لقد حقّق المغربُ تحريرَ صحرائه باستعمال مختلف آليات التحرير التي اعتمدتْها الجزائرُ نفسُها لتحرير أرضها بالمقاومة المسلّحة، والتفاوض في «إڤيان» مع المستعمر الفرنسي. وحَرّر المغربُ صحراءه بزحف المسيرة الخضراء السلمية على الصحراء، والتفاوض مع الدولة الإسبانية المحتلة، والتوقيع على المعاهدة الثلاثية المغربية ـ الإسبانية ـ الموريتانية بمدريد سنة ١٩٧٥. وكان إمضاءُ إسبانيا يعني اعترافَها بإنهاء الاحتلال، وتسليمَها الأرضَ المغتصبة لأهلها ومالكيها.

وقبل زحف المسيرة التاريخية على أرض الصحراء المغربية استعمل المغربُ آليةً قانونيةً لإثبات حقه التاريخي فوق أرضه، واستَصْدر من محكمة العدل الدولية قرارًا يقضي بأنّ الصحراء مغربية ارتبطتْ عبر القرون بولائها لسلاطين المغرب، والتزم سكّانُها ببيعتهم، ولم تكن قطُّ أرضًا مواتًا أو خلاءً لا مالك لها.

لكنّ الجزائر وحدها رفضتْ أن تعتبر هذه الإجراءات كافيةً لتوفير شروط تحرير الصحراء، وأعلنتْ أنّها ما تزال في نظرها قضيةَ استعمارٍ في حاجة إلى تصفية، ونادت بالدعوة إلى تمتيع الشعب الصحراوي (أيّ شعب؟) بحقّ تقرير المصير، الذي يعني عندها تمكينَ جبهة البوليساريو من الاستقلال بالصحراء لتصبح دويلة تابعة وبيدقًا يحرّك في لعبة توازن القوى بينها وبين المَغرب وكنّا سنَفهم اتجاهَ الجزائر تلك الوجهةَ لو كان البوليساريو حركةَ مقاومةٍ للاستعمار الإسباني يَعْمل فوق أرض الصحراء، ويَسْقط فيها الشهداءُ، ويُقْلق راحةَ المستعمر. لكنْ لا أحد عَلِم أو سَمع بوجود حركة مقاومة صحراوية أسّسها البوليساريو أو سُجِّل لها نشاطٌ معارضٌ قبل أن يحرِّر المغربُ أرضَه سنة ١٩٧٥

هكذا تم افتعالُ قضية «تصفية الاستعمار في الصحراء» دون التأمل في عواقب هذا الافتعال على تطور علاقات البلديْن الشقيقيْن، وبدون حسابٍ لتداعيات هذا المنهج الخاطئ على حاضر اتحاد المغرب العربي ومستقبله.

إنّ أغلبية أعضاءِ «جبهة البوليساريو» لا ينتمون إلى إقليم الصحراء المغربي، بل إلى أقاليم المغرب غير الصحراوية، وفي طليعتهم محمد عبد العزيز، رئيسُ الجبهة الموهومة، الذي وُلِدَ بمدينة مراكش عاصمةِ الجنوب المغربي، وما يزال والدُه مقيمًا بها يتبرّأ من ولده المتمرد على وطنه والعاصي لوالديه. ولا وجود لأعضاء جبهة البوليساريو فوق أرض الصحراء التي افتكّها المغربُ من أضراس الاستعمار الإسباني السابق، بل أقامتهم الجزائرُ فوق أرض تيندوف المغربية التي كان الاستعمارُ الفرنسي قد انتزعها من المغرب وضَمّها إلى الجزائر بعد أن أَدْمجها في التراب الفرنسي ضمنَ ما أَدْمجه من التراب المغربي الواقع في الحدود الشرقية.

كان من المُنتظر الموعودِ به من لدن حكومة الجزائر الموقتة ـ حتى قبل استقلالها ـ أن يسترجع المغربُ أراضيَه الطبيعيةَ التاريخيةَ التي ألحقتْها فرنسا بالجزائر، وأن تباشر الجزائرُ إصلاحَ ما أفسده الاستعمارُ. لكنّ الجزائر أعربتْ عن رغبتها في أن تحتفظ بالحدود الموروثة من هذا الاستعمار، ورضي المغربُ وتنازل عن أراضيه لنزع فتيل التوتر بينه وبين جارته وشقيقته، ولأنه كان يراهن على ترسيخ الاتحاد المغاربي الذي سيتجاوز الحدودَ الضيقةَ ليصبح فضاءً متكاملاً أكثرَ رحابةً وأقوى إمكانياتٍ. وتم الاتفاقُ على ذلك في قمة تلمسان (الجزائر) التي انعقدتْ في ٧ مايو ١٩٧٠، وحضَرْتُها بوصفي وزيرَ خارجية الملك الحسن

لمَ لا يَرفع الرئيس الجزائري يده عن الصحراء المغربية التي تؤكّد الجزائر أنّها غير معنية بها؟

الثاني، كما حضرها السيد عبد العزيز بوتفليقة بوصفه وزيرَ خارجية الرئيس الجزائري الهواري بومدين.

على أرض المغرب السابقة، وفي مدينة تيندوف التي كانت تابعةً قانونيًا وإداريًا للمغرب حتى موعد اتفاق تلمسان، أقامت الجزائرُ، نكايةً بالمغرب، فلولَ جبهة البوليساريو، ووضعتْها في مخيمات مزرية، وسقَتْها، وأطعمتْها، وكستْها، ومولّتْها، وسلّحتْها، وزكّتْ لدى الدول خرافةَ الجمهورية الصحراوية، ودَعَمَتْها لدى الأمم المتحدة، ونَطَقَتْ باسم حكومتها المزعومة في كل نادٍ ومحفل. وكلُّ ذلك مخالف لما نصّ عليه بيانُ قمة زرالدة (الجزائر)، وما جاء في الميثاق التأسيسي لاتحاد المغرب العربي (في أعقاب الإعلان بمراكش عن تأسيسه) من وجوب امتناع الدول الأعضاء عن دعم كلّ حركةٍ انفصاليةٍ تَعْمل على المسّ بالوحدة الوطنية الترابية لهذه الدول.

لعلّ غلاةَ سياسة حبس المغرب في قضية الصحراء المفتعلة، وسعيهم المستمر إلى فصلها وإقامة دولة تابعة فوق ترابها، يراهنون على أن يجعلوا منها دمُّلاً عاتيًا Gangrène يَنْخر جسمَ المغرب ويشلّ حركةَ تنميته، بما يجعله غيرَ قادر على أخذ مكانه في ميزان توازن القوى الذي تقوم سياسةُ الجزائر حيال الصحراء على حساباته. فماذا جنى المغربُ على الجزائر لتعاقِبَه على ما أسدى ثورتَها المكافحةَ من سندٍ وإيواءٍ لقادتها فوق أرضه؟

في هذه الأجواء القاتمة انطفأتْ شمعةُ اتحاد المغرب العربي الذي كان أملَ الجماهير المغاربية، وها هو اليوم يقدِّم عن نفسه صورةَ شبحٍ متآكلٍ مرعبٍ، مظهرُه المزعجُ هو التسابقُ إلى التسلح. فضدَّ مَنْ تتسلح الجزائر؟ ألا تكفي ٢٨ سنة بلغها عمرُ هذا التخبط في سياسة توازن القوى؟ ألا ينبغي أن يقوم قادةُ المغرب العربي باستخلاص العبرة من الحصيلة السلبية التي حصدتها الجهودُ أيام الاستعمار وبعده لإقامة صرح الاتحاد المغاربي بعيدًا عن الحسابات الضيقة؟ لا يُتصوَّرُ في عالم السياسة الجديد أن تَرْتكب النظمُ السياسيةُ خطأً حافلاً بالمخاطر على مصالحها ثم لا تتراجع عنه. وهذا النوع من الانحباس في لحظة تاريخية تمتدّ بلا نهاية هو ما أطلقتُ عليه قديمًا عبارةَ «اليوشعية،» نسبةً إلى النبي يوشع بن نون، طبقًا لما جاء عن أخباره على لسان أحبار اليهود من أنّ اللّه أَوْحى إليه وهو في سنّ الثمانين أن يبعثه رسولاً إلى قومه، فقال «يا ربي إني كبرتُ ولن أتمكّن قبل وفاتي من تبليغ هذه الرسالة » لكنّ اللّه ألحّ عليه، فرغب إلى ربه أن يوقِفَ له الشمسَ ليكون يومُه طويلاً لا تَعْقبه ليلة. ويقول أحبارُ اليهود إنّ اللّه استجاب له، إلى أن بلّغَ الرسالةَ على امتداد سنوات لم يَعْقبها ليلٌ، قبل أن يتوفّى وهو ينشر الدعوة .

هذا النوع من السياسات الجامدة في لحظة معينة، والتي لا تنفتح على مراجعة الذات من أجل التغيير، هي التي أسمّيها السياسةَ اليوشعية. وكلّي أمل أن يَعْمل على وضع حدٍّ لها صديقي وأخي الرئيسُ عبد العزيز بوتفليقة، الذي امتدت علاقتي به طوالَ سنوات، فيبادر إلى تحقيق الوئام بين الجزائر والمغرب لفائدة المصالح العليا المشتركة ـ خصوصًا وهو صاحبُ مشروع الوئام الوطني الجزائري. فَلِمَ لا يحقّق مشروع الوئام **المغاربي**، ويرفع يدَ الجزائر عن الصحراء المغربية التي تؤكّد الجزائرُ أنّها غيرُ معنية بها، لتتركَ مباشرةَ حلِّها إلى الشرعية الوطنية المغربية، وأن يَردَّ على التحيّات الطيبات التي يتوجّه بها إليه وإلى الجزائر الشقيقة جلالةُ محمد السادس بمثْلها أو أحسنَ منها؟ إنّ ملك المغرب، إذ يوالي مساعيه لإصلاح ذات البين، إنّما يسعى إلى تحرير منطقة المغرب من التوتر لإتاحة فرصة إنعاش الاتحاد الذي يوجد ـ بسبب قضية الصحراء المفتعلة ـ في حالة اختناق. وهذا هدف مشترك بين الجارتيْن ينبغي التسارعُ إلى تحقيقه.

وأعتقد أنّ الرئيس بوتفليقة ـ وهو المكافح المجاهد ـ مؤهَّل بجميع المقاييس لإنجاز لحظة التصالح الجزائري ـ المغربي التي سيَكْتبها في سجلّ منجزاته. فإلى ضميره الوطني أتوجّه بهذه الدعوة الأخوية، وما أظنّه إلاّ مستجيبًا لها.

عبد الهادي بو طالب
مفكّر ومستشار سابق للملك الراحل الحسن الثاني من آخر مؤلّفاته **نصف قرن في السياسة**